دراسات في الإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

ينابيع الفكر الإسلامي
و
عوامل تطوره

للدكتور محمد غلاب

« ٦٣ »
السنة السادسة
١٥ من جمادى الآخرة ١٣٨٦ هـ
٣٠ من سبتمبر ١٩٦٦ م

يشرف على إصدارها :
محمد توفيق عويضة

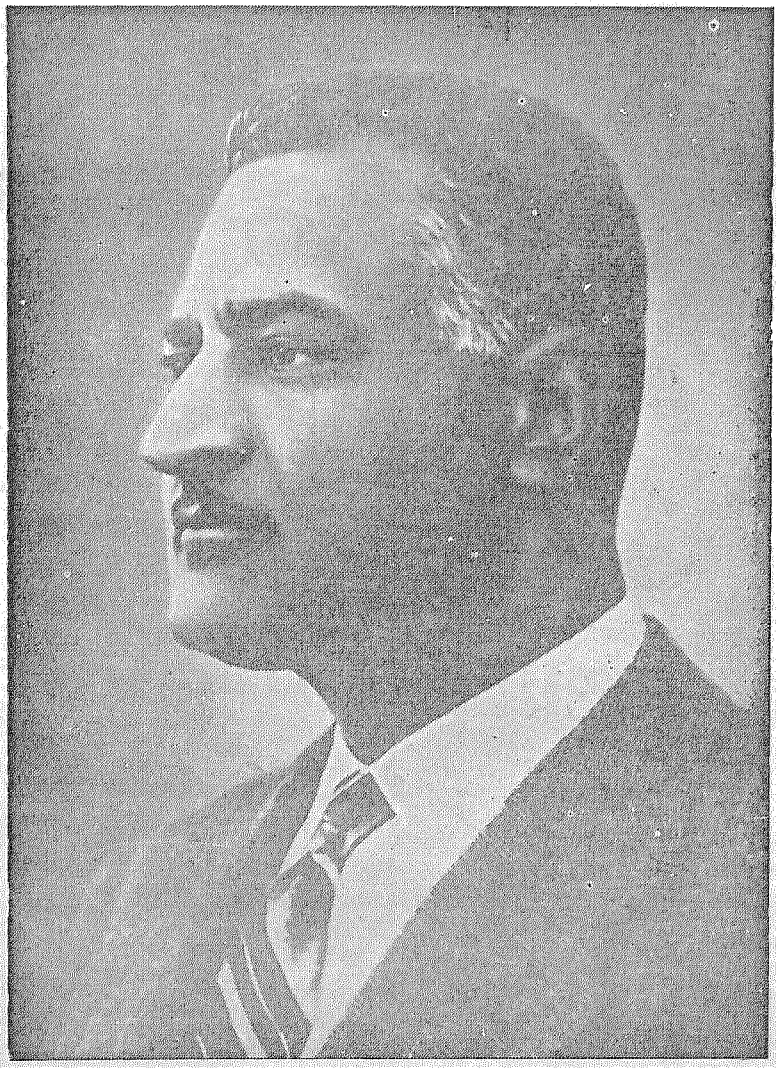

بسم الله الرحمن الرحيم

«يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ» .

«صدق الله العظيم»

مقدمة

بسم الحق نستعين ، وبفيضه نسترشد ونهتدى ، وبخيريته نتقيل ونقتدى ، وبعد فقد اقتادنا البحث فى الجزء الثانى من كتاب الفلسفة الاغريقية ، الى القرن السادس بعد المسيح حيث كانت مدنية البحر الابيض المتوسط بدأت تذوى شيئا فشيئا: ففى الغرب كانت الضربة القاضية التى أصابتها فى الصميم تقوض سلطان الامبراطورية الرومانية الغربية أمام اجتياح البربر فى القرن الخامس • وفى الشرق جعل التدهور المتواصل الذى كان يتعاقب على الامبراطورية البيزنطية يتجاذب تلك المدنية ويهوى بها الى الحضيض، ولكن فى شىء من البطء جعل مصيرها يختلف عن مصير شقيقتها الغربية التى كان زوالها فجائيا ، فظلت تغالب الزمن فى ضعف حتى ظهر الاسلام فغمرها بمدنيته الشابة التى لم تكد تنضج وتستكمل قوتها حتى بهرت العالمين كليهما •

ولما كانت الحياة العقلية جزءا من جسم الحياة العامة ، فقد كان من الطبيعى أن تتأثر بما تأثرت به هذه الحياة العامة من ضعف وتخاذل ، وهذا هو الذى وقع بالفعل ، فلم يكد البربر فى الغرب يجتاحون الامبراطورية حتى لجأت الفلسفة الى أحضان المسيحية

واختفت فى الأديرة كما اختفت المدنية العامة فى غيابات الزمن . وكذلك حين اخذت المدنية العامة تضعف فى الشرق تبعتها الفلسفة وقد ظهرت هذه التبعية أول الأمر فى انعطاف البيئات العقلية تدريجيا نحو الحياة الروحانية وانصرافها شيئا بعد شيء عن النظر البحت . ولما كانت الحياة الروحانية موفورة فى التعاليم المسيحية التى كان سلطانها قد أخذ يقوى ، فقد جعلت البيئات الفلسفية تدنو منها وتمزج بها نظرياتها مزجا تظهر الغلبة فيه حينا للدين، وحينا آخر للعقل حتى أصبح النظر كله فى تلك العصور طلاء للحياة الروحية التى صارت الغاية المقصودة للجميع . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل اخذت تلك الروحانية تغالب النظر حتى تمت لها النصرة عليه فى القرن السادس .

غير أن خضوع الفلسفة ـ ابان تدهورها ـ لعوامل تكاد تكون متشابهة فى الشرق والغرب لا يقتضى أن يكون مصيرها فيهما واحدا ؛ لأن العوامل التى اثرت فيها ابتداء لم تلبث أن تبدلت ، فكان من الطبيعى أن يتبعها المصير وقد كان . ففى الغرب لما رأت المسيحية أن الفلسفة قد التجأت الى كنفها وسألتها حمايتها، منحتها هذه الحماية على أن تتقاضى منها ثمنها باهظا مرهقا وهو أن تتخلى عن كل استقلالها وشخصيتها ، وأن تظل خادمة لتعاليم العقيدة أى أن تكون مهمتها قاصرة على تفسير ظواهر الكون بما لايتنافى مع الوحى المسيحى وأن تدلل على ما أتت به المسيحية من عقائد وشعائر ، وهددتها بأنها اذا لم تقبل هذا المصير فانها لاتسلبها حمايتها فحسب ، بل تمحوها من صحائف الكون ، فلم يسع الفلسفة الا الاذعان لهذا السلطان والبقاء فى خدمة العقيدة . وقد نجم هذا أن تلونت جميع الأفكار الفلسفية فى القرون الأولى للمسيحية بلون التقليد والتعمل ، فلم تنتج تلك العصور فلاسفة مستقلين يبرهنون على حرية العقل ويسيرون طبق مناهجه المنطقية ، ولم تعرض على بساط البحث اذ ذاك مشاكل هامة ، وانما

كان أهم المشكلات فى ذلك العهد مشكلة الصلة بين العقل والدين، اذ أنه منذ ان أعلن القديس أوجســـتان الذى يعتبر مؤسس النظر فى الغرب المسيحى أنه يوجد نوعان من المعرفة ، وهمـــا : المعرفة الالهية التى تقتبس من الوحى ، والمعرفة الانسانية التى تعتمد على العقل ، قد اجتهد مفكرو المسيحية فى اخضـــاع الثـــانية للاولى ، وأعلنوا أن مهمة العقل هى توضيح ما أتى به الوحى المســـيحى وتحقيقه ، ولكن هذه الغاية التى قصد اليها رجال الدين لم تتحقق تماما رغم المجهودات المتواصلة التى بذلتها الكنيسة لتحقيقها ، اذ لم تلبث العلوم الانسانية أن انتشرت بفضل النهضة الاسلامية التى بهرت بأنوار القرآن ومبادىء الاسلام ومعارف الاغريق أعين مفكرى القرون الوسيطة المسيحية ، فنتج من ذلك أن بدأ العقل يعلن رفعته ويتمرد على منزلة التسليم بغير نظر منطقى دقيق. وقد جعل هذا الشعور يقوى مع الزمن ويسير الى التحقق قليلا قليلا حتم تم للعقل على يد النهضة الأوربية ما كان يطمح اليه فألقى بنير الاستعباد جانبا وفاز بحريته كاملة . فجعل يفكر كما يريد لا كمـــا تريد الكنيسة أن يكون . ومعنى هذا كله أن الفلسفة فى الغرب ظلت فى وثاقها الذى كبلتها به حاميتها الطاغية حتى عصر النهضة .

هذا هو مصير الفلسفة فى الغرب فى العصـــور الوســـيطة، أما مصيرها فى الشرق ، فهو يختلف عن ذلك اختلافا بينا ، اذ لم يجتح البربر الشرق كمـــا اجتاحوا الغرب ولم يقضوا على الحركة العقلية فى الامبراطورية البيزانطية كما قضى عليها فى الامبراطورية الغربية ، ولم تقف الفلسفة فى الشرق موقف الافتقار الى الحماية ؛ وبالتالى لم تلجئها الضرورة الى التنازل عن حريتها ثمنا لهـــذه الحماية كما فعلت فى الغرب ، فظلت حرة عزيزة لا تقترب من تعاليم الوحى الا عن طيب خاطر ، ولكن تيار الحياة الروحية قد جرفهـا — كما اشرنا الى ذلك آنفا — وزج بها فى لون من الجدل القاحل كاد أول الأمر أن يقضى على الانتاج الفلســفى قضاء مبرما حتى لقـــد

أصبح الجدل البيزانطى فى العصور الحديثة مرادفا للقحولة التى لا نتيجة لها ، غير أن ذلك لم يمنع الفلسفة من ان تقاوم وتحتفظ بوجودها وتعلن آراءها المتعارضة مع المسيحية اعلانا لا مواربة فيه ولا مجاملة • ومن هذه الآراء التى اصطدمت فيها مع العقيدة نظرية المراتب العقلية التى قال بها الفلاسفة بين الاله والانسان ، ونظرية النواميس الطبيعية التى هى عندهم لا استثناء فيها ولا تملك اية قوة أرضية أو سماوية تبديل شىء منها ، ونظرية أزلية العـــالم وأبديته ، تلك النظريات التى يجحدها أكثر اهل الديانات السماوية جحودا تاما •

ولكن الحياة الروحانية قد أخذت تصبغ الفلسفة بصبغتها حتى حولتها الى نوع من التعمل الذى لا يرتضيه العقل السليم • ولكى يصل القائمون بهذه الحركة الى أغراضهم شوهوا الفلسفة الحقـة واضافوا اليها ذلك التنسك المغـــالى الذى لا يحسب فى نظرياته للعقل أى حساب •

وبينما الحياة العقلية فى الشرق على هذا النحو حدث ذلك الحادث الهائل الذى قلب دنيا العصور الوسيطة رأســا على عقب ، وغير وجه التفكير العالمى كله ، وهو ظهور الاســلام الذى لم يلبث أن وضع الشرق وجانبا عظيما من الغرب تحت سلطانه ، ووحد بين العناصر المختلفة ، وفرض عليها عقيدته المؤسسة على مبـدأ التوحيد الكامل الذى لا مشابهة فيه بوجه ، والتى تصرح بأن ارادة الاله وقدرته لا تتقيدان بناموس ولا تقفان عند حد ، ولا تنحنيان لعلة من العلل أيا كانت طبيعتها « لا يسأل عما يفعل » •

ولا ريب أن هذا الأساس متعارض أشد التعارض مع الفلسفة التى كانت سائدة اذ ذاك فى البلاد التى خضعت لسلطان الاســلام كفلسفتى زرادشترا وبوذا •

لهذا كانت مهمة المتكلمين المسلمين التدليل على وجـــود اله وعالم يختلفان كل الاختلاف عن آلهة تلك الامم وعالمها ·ولا يعتمدان الا على القرآن كأساس لهما · غاية ما فى الأمر ان السلف الأول كان لا يلتفت فى براهينه الى غير القرآن · أما المتأخرون ، فقـــد اضطرهم الاختلاط بالأجانب وكثرة الشبه الى استخدام المنطـق الاغريقى · ولقد كانت أهم المشكلات التى شغلت متكلمى عهـــد ما قبل الترجمة مشكلتا وحدانية الاله وانفراده بالقدرة والفعل · وقد نشأ من الأولى جحود الصفات الالهية فراراً من تعدد القدماء، ونشأ من الثانية اسناد كل فعل الى الاله ، وهذا هو مأتى الآراء القدرية الاعتزالية والجبرية والصفاتية · أما بعد الترجمة فقـــد أضيفت فى بيئات المتكلمين الى هذه المشـــاكل مشكلات أخرى كمشكلة عدم قابلية الذات الالهية للتألف من جميـع وجوهه . ومشكلة علم البارى وأزلية العالم أو حدوثه ، وصدوره أو خلقـه وما شابه ذلك من مشاكل الفلسفة الاغريقية ·

أما فلاسفة الاسلام ، فكان لهم شأن آخر ، اذ اختلفت غايتهم ووسائلهم فى البحث عن غاية المتكلمين ووسائلهم ؛ فبدلان يدللوا ـ كما فعل أسلافهم ـ على اله ظاهر القرآن المتفرد بالوحـــدانية والأزلية والقدرة التى لا تحد · وعالم حرفيته المحدث المخلوق من عدم ، قالوا على العكس باله هو علة فاعلة أخضعت كل تصرفاتهـا لنواميس أزلية غير قابلة للتبديل · وبعالم أزلى أبدى هو معلول لتلك العلة ارتبطت فيه جميع المعلولات بعللها ارتباطا محكما يستحيل فيه الاستثناء · وبدل أن يصدروا فى تفلسفهم عن القرآن محاولين تأييد نصوصه بالعقل صدورا عن العقل جاذبين نحوه توجيهات معانى القرآن ، فكانوا بهذا حلقات هامة من سلسلة الفكر البشرى أو كانوا ـ كما يسميهم العلماء المحـدثون ـ مديمى الفلســـفة الاغريقية أو واصلى حبلها ·

وفى الحق أن فلاسفة الاسلام لايقلون فى فهمهم الفلسفة القديمة وتوجيههم اياها وفى ابتداعاتهم العديدة عن فلاسفة الاسكندرية .

واذن ، فمن العسف أن ينظر بعض الباحثين الغربيين الى سلسلة العقل الانسانى بنظرين أو بكيلو بكيلين ، وان يجحدوا تلك اليد الطولى التى يشهد بها تاريخ الفكر لفلاسفة المسلمين على أوروبا. اذ لولا منتجات أولئك الفلاسفة لما استطاع أحد أن يتنبأ بمصير الغرب ، أو أن يعرف متى كان يقدر للنهضة الحديثة أن تبدأ .

وقد يعترض على هذا معترض فيرمينا بالتحكم ويسائلنا : ما المانع من أن تنشأ من الجدل بين أنصار النظريات الاغريقية وأتباع المسيحية فلسفة تظل ترقى حتى تبلغ آواج فلسفة الاسكندرية وتكون أساسا للنهضة الحديثة كما كانت الفلسفة الاسلامية ؟ . وجوابنا على ذلك أن المانع من تحقق هذا الفرض أساسى ، وهو أن المسيحية أوجبت التسليم ، والاسلام أوجب النظر . وهذا الايجاب من جانبه هو الذى احتمى به الفلاسفة فى بحوثهم واستندوا اليه فى استمتاعهم بحرية الفكر الى ذلك الحد البعيد الذى شاهدناه ونشاهده فى آرائهم . ومن آيات ذلك أن الاسلام أنتج فلسفة فنية عميقة منذ أوائل القرن الثالث الهجرى، على حين لم تجار البيئات المسيحية هذه الحركة الا بعد ثلاثة عشر قرنا من تاريخ ظهورها . وفوق ذلك فقد كانت مجاراة باهتة رخوة لاتستحق أن تسمى فلسفة بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، لأن مشاهير فلاسفة العصور الوسيطة الغربيين كالقديس « أنسلم » والقديس « توماس الاكوينى » والقديس « بونافانتور » لايرتفعون الى مستوى كبار المتكلمين كالأئمة : الأشعرى ، وامام الحرمين ، والباقلانى ، والغزالى . أما أنظار الفارابى ، وابن سينا ، وابن رشد ، فلا وجود لهم البتة فى أوروبا الا فى العصر الحديث .

على أن أولئك المتفلسفين المسيحيين أنفسهم هم صنيعة منتجات فلاسفة الاسلام ومتكلميه كما تشهد بذلك مؤلفاتهم واعترافاتهم ولولا أن المقدمات لاتتسع للتفاصيل لبرهنا على هذه الدعوى هنا بعدة براهين ، ولكننا نحيلك الى هذه الآيات الناصعة فى مواضعها من كتبنا .

هذا ، ونسأل الحق جل شأنه أن يسدد خطانا فيما نسلكه من سبل غير قاصدين منها الا مرضاته ، وتحقيق مراده من ايجاد العقل ، انه نعم الحكيم العليم .

المؤلف

* * *

بدء الفكر الإسلامي وتطوره

نظرة عامة

يطلق بعض العلماء الأوروبيين على الفلسفة الاسلامية اسم الفلسفة العربية ، ونحن نخالفهم فى هذا الاطلاق ، لأننا نرى أن هذه الفلسفة هى وليدة الاسلام لا وليدة الفكر العربى المحض .

وآية ذلك اننا القينا نظرتين عاجلتين : احداهما على الامة العربية قبل الاسلام والأخرى عليها بعد ظهوره ألفيناها فى الحالة الأولى مجدبة قاحلة ؛ وفى الثانية مخصبة مزهرة ، فلو أن هذه الفلسفة كانت عربية ولم تكن اسلامية لعثرنا على عناصرها الأولى فى البيئات العربية قبل اشعاع القرآن فى جنباتها . أما مايذكره أنصار الفكرة المعارضة من أنه كان للعرب قبل الاسلام تأملات فى أسرار الكون ، وآراء حول نشأته ومصيره كتلك التأملات التى أثرت عن قس بن ساعدة وأمية بن أبى الصلت وأمثالهما ، أو كتلك الدهرية التى نبأنا القرآن بأن بعض العرب كانوا يدينون بها ، اذ عارضوا فكرتى الخلق والبعث بقولهم .. **((ان هى الاحياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا الا الدهر)) أو : ((أاذا متنا وكنا ترابا وعظاما أانا لمبعوثون)) أو ((من يحيى العظام وهى رميم))** . وما شاكل ذلك فاننا ندفع القسم الأول منها بأنه ليس عربيا ، وانما هو مزيج من الأفكار الدخيلة التى

حملها المسيحيون الى بلاد العرب متأثرين فيها بالطوابع الفلسفية المختلفة التى طبعت بهـا المسيحية فى الاسكندرية ، وسـوريا والقسطنطينية ، وروما ، وبلاد فارس .

وأما القسم الثانى من هذه التأملات فنحن نقرر أنه لايزيد على كونه أفكارا عامية حسية اقتطعتها العقلية العربية الساذجة من مشاهدتها الأجسام الانسانية تتفكك كأجسام بقية الحيوانات ثم تتحول عظامها النخرة الى تراب يختلط بالرمال ويتلاشى فيها. ولما كانت لاتتعقل سمو الانسان على بقيـة الكائنات الأخرى ، ولا تخصه دونها بنفس علوية خالدة لا تخضـع لحظ البدن ، فقد استنبطت أن مصيره كمصيرها سواء بسواء ، وليس هذا تأملا فى أسرار الكون ، وانما هو عجز عن التأمل ووقوف عند المرتبة السلبية الساذجة التى لاترسل شيئا من أشعة العقل الى ما وراء المشـاهدة الحسية . وهاك هاتين النظرتين اللتين تتبين من أولاهما أن العرب قبل الاسلام لم يكن لهم فلسفة ولا حياة فكرية عميقة وأن هذه الحياة العقلية الرائعة وليدة هذا الدين بالذات أولا ، ووليدة ما تسبب هذا الدين فى وجوده من جدل واختـلاط وترجمة ثانيا .

كان العرب فى جاهليتهم أمة بدية رحالة تنتجع مساكب الغيث، وتستوطن منابت الكلأ فشغلتهم هذه المشقة العنيفة فى سـبيل تحصيل المعاش وجلب القوت عن التأمل فى أسرار الكون والطموح الى معرفة نشأته ومصيره .

أما أخلاقهم وطباعهم فى ذلك العصر الجاهلى ، فقد كانت مزيجا من حسن السجايا وقبيحها . فكما كان من طبـاعهم السـخاء وايواء الضيف والوفاء والشهامة والاباء والشجاعة وقوة الشكيمة والصبر على المكاره ، كان مما اشتهروا به أيضا الغلظة والقسـوة وسرعة الغضب والعنجهية المغالية واتلاف ماتصـل اليه أيديهم

من مال دون التفكير فى نتيجة تصرفاتهم ، ووأد البنات خوفا من من الفقر والعار • وأما تشريعاتهم فكان يكتنفها نوع من الهمجية لايعرف له نظير الا لدى الامم المتوحشة • وأما ديانتهم فكانت وثنية ساذجة (١) ، جافة لا روح فيها ولا حياة تسير فيها العبادة على نسق العقل لايسيغه العقل ، ولا يؤيده المنطق أو الذوق السليم • وبالاجمال كانت حياتهم الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية مضطربة اضطرابا يؤذن بالخراب والدمار : يشتعل أوار الحرب بين القبيلتين ويستمر أعواما طوالا تزهق أثناءها مئات الأرواح ويتيتم مئات الأطفال ، وتثيم مئات النساء وكل ذلك من أجل سباق حصانين ، أو من جراء كلمة نابية تنبس بها شفتا شاب متسرع أو ما شاكل ذلك • فلما شاءت الأقدار أن تنقذ هذا الشعب من تلك الوهدة السحيقة التى هوى ، تفضلت عليه بالاسلام ، ذلك الدين الذى صدع به من هذه الأمة رجل هو من أنبل أسرها وأعرقها مجدا • كما يقول فى وصفه الأستاذ ديزيريه بلانشيه (كان محمد خير ثمرة لخير شجرة نبتت فى شبه جزيرة العرب) ثم أيد دعواه بذلك الكتاب الفخم الذى يقول فى وصفه ذلك العالم السابق ما يلى : « كفى هذا الكتاب مجدا وجلالا ان الاربعة عشر قرنا التى مرت عليه لم تستطع ان تجفف أسلوبه بل لايزال غضا كأن عهده بالحياة أمس » والذى تحدى أعداءه على طول الخط أن يجاروا أقصر سورة منه فى ميدان الفصاحة والبلاغة اللتين كانتا كل ما امتاز به العرب من موهبة فأعلنوا عجزهم وسلموا الراية لصاحب هذا الدين الجديد ، وأخذوا

---

(١) كان المصريون والاغريق وثنيين ولكن وثنيتهم لم تكن ساذجة كوثنية العرب لأن تمثال كل اله من آلهتهم كان كانه وثيقة ناطقة باختصاص هذا الاله • بينما كانت أوثان العرب عبارة عن احجار منحوتة على شكل المظهر العام للانسان أشبه شىء بما ينصبه زراع مصر فى الحقول ليدفعوا به الطير عن مزارعهم •

يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه ، وهو فى كلتا الحالتين يعلن أنه لاينطق عن الهوى ولا يصـــدر الا عن وحى أو الهـــام من أحكم الحاكمين وأعلم العالمين بالخير والمصلحة ، فكان من الطبيعى أن تقودهم هذه التعاليم الراقية الى النظام العمـرانى والرفعـــة الاجتماعية والكمال الأخلاقى • وهذ هو الذى كان بالفعل فلم يكد الاسلام يبسط جناحيه على جزيرة العرب حتى رأب صدعها ولم شعثها ، وجمع متفرقها وأخذ يضرب بيد من حديد على كل أسباب الفشل والشقاق من عادات العرب وتقاليدهم الهمجية الأولى؛ ونشر فيهم روح العدالة والشورى والسلام ، وأعلن فيهم ان الاسلام قد سوى بين رفيعهم ووضيعهم لأن بنى الانسان جميعا سواسية كأسنـــان المشط لا فضل لأحد منهم على الآخر الا بالتقوى والاستقامة » •• « **أن أكرمكم عند الله أتقاكم** » وحرم عليهم التمسك بتلك العصبية البربرية ، فلما تغلغلت فى نفوسهم هذه التعاليم خلقتهم خلقا جديدا، وكونت منهم خير أمة صالحة للحياة فحسب، بل لبسط سلطانها، ونشر دينها على المعمورة بأسرها • وقد نشرته فعلا على قارتى: آسيا وأفريقيا وجزء عظيم من قارة أوروبا • ولولا ظروف خاصة ذكرها التاريخ السياسى لاكتسح الاسلام أمامه الديانات الأخرى ، ولأظل المعمورة بظلاله الوارفة •

ذاعت بين الأوروبيين فى القرن الماضى فكرة خطرة على الحقيقة والتاريخ ، مؤداها أن الاسلام كان حربا ضروسا على حرية الفكر ، وأنه كبت جميع الحركات العلمية ، وحارب العلم والفلسفة وحظر على معتنقيه التأمل والنظر ، وأن العرب مدينون بالعناصر الأولى من أفكارهم للاغريق ، اذ انه لم يظهر لديهم قبل عصر الترجمة شىء من التفكير • وكان « أرنست رينـــان » أبرز دعاة هـــذه الفكرة الخاطئة فأفسح لها أمكنة واسعة فى عدة كتب من مؤلفاته ، وأفرد لها سفرا خاصا عنوانه : « الاسلام والعلم » فانتشرت بسبب هذه

الدعاية فى جميع الأوساط الأوروبية المثقفة على ما بها من عداء للحق وافتيات على التاريخ ، وقد أذاع « رينان » هذه الفكرة فى جامعة « السوربون » ثم رد عليها المغفور له السيد جمـــال الدين الأفغانى بما الجأه الى الاعتراف بخطئه فيما قرره .

كان هذا الرأى السطحى الخاطىء هو رأى ارنست رينان فى الاسلام ، وفى مبدأ الحياة الفكرية عند المسلمين قبل أن يبرز السيد جمال الدين الافغانى خطأه للعيان،ويلجئه الى التنازل عنه فى جامعة السوربون على مشهد من تلاميذه ومريديه والمعجبين به .

والآن نســـوق اليك فى نفس هاتين المشكلتين رأى الأســـتاذ « كرادى فو » كباحث فنى خصص نفسه للفلسفة الاسلامية ودرسها دراسة عميقة تسمح له بأن يرى منها ما لم يره الاستاذ رينان ، وتبيح له أن يحكم عليها الحكم الذى له قيمته فى نظر الباحثين، وهاك هذه الآراء : « ليس القرآن كتابا فلسفيا ، وليس محمـــد فيلسوفا بالمعنى الفنى لهذه الكلمة ، ولكنه كنبى التقى أثناء تأديته مهمته ببعض المشاكل الفلسفية فمنحها الحلول الوحى بها مصوغة فى أسلوب أدبى . ومجموعة هذه الحلول هى التى كونت العقيدة الاسلامية ، وهى التى صارت فيما بعد نقطا محددة للنظر الفلسفى عند العرب . واذن فلم تكن المشكلة العامة عنـــد العـــرب هى البحث عن الحقيقة ما دام أن هذه الحقيقة قد قدمت اليهم عن طريق الوحى فى مواضيع عدة من هذه النقط الجوهرية وانما كانت هى التدليل بالبراهين التحليلية العقلية على هذه الحقائق التى بسطت بطريقة الوحى واستبدال الصورة الأدبية التى صيغت فيها بصورة تتفق مع المناهج الفلسفية ، وذلك هو ما كان يمكن أن يطلق عليه اسم « المشاكل المذهبية »

نعم ان بعض العقول قد أضاعت الغاية المرادة من هذه المشكلات وأخذت تعنى بالفلسفة أكثر من عنايتها بالعقيدة التى كان ينبغى

أن لاتكون الفلسفة الا منهجا لها ، بل ان هذه العقول قد استخدمت الفلسفة فى تشـــويه العقيـــدة ، ولكن تلك الحركات لم تكن الا الخطوة الثانية فى تاريخ الفكر الاسلامى . أما الفكرة الأولى فهى حركة البحوث المذهبية (أى علم الكلام) . واذن فمن المهم أن نعرض هنا المباحث العقيدية التى عنها صدرت هذه الحركة ونمت ، وهذا هو الذى سنفعله حين نبسط الهيات القرآن . »

أخذ الأســـتاذ « كارادى فو » بعد ذلك يسرد أهم المشـــاكل الفلسفية التى واجهها القرآن ثم قال كلمته الفاصلة فى حلولها التى فرض الايمان بها على معتنقيه والتى نذكر منها ما يلى :

١ ــ الألوهية (٢) الوحدانية (٣) القدرة (٤) المخالفة لجميع الموجودات (٥) التنزه عن الانسال (٦) حدوث العالم (٧) علم الاله بكل ما فى الكون (٨) الحياة الآخرة (٩) القضاء والقدر (١٠) الخير والشر (١) .

ولا ريب أن هذه المشكلات التى أشـــار القرآن هى خلاصة مباحث الفلسفة فى أرقى مظاهرها . وهذا يؤيد ما ادعيناه آنفـــا من أن عناصر الفلسفة الاسلامية ليست اجنبية كما يقول الاستاذ رينان وأشياعه ، ولا هى من انتاج العقل الجاهلى كما يقول أنصار فكرة « الفلسفة العربية » وانما هى قرآنية محضة ؛ وسنبين ذلك بالتفصيل فى مواضعه .

فى الحق أن كل من يلقى نظرة فاحصة على القرآن ويتأمل فى آياته الدافعة الى التدبر والتفكير فى شىء عظيم من العمق والحاضة على النظر العقـــلى ، بل التى ترمى من لم يتعمق فى أسرار الكون بالخلـــو من اللب تارة ، وبعـــدم البصر بالأمور تارة أخرى ، يتضح له أن هذا الكتاب الكريم هو أول أسباب تغلغل الفلسفة فى

---

(١) انظر صفحة ١ وما بعدها من كتاب ــ ابن سينا « للبارون كارادى فو ».

البيئات العربية ، بل هو أول كتاب سماوى فرض التفكير على أتباعه فرضا ، وأوجب عليهم التفكر فى أسرار الكون وخفايا الوجود ليصلوا من هذا التفكر الى معرفة المبدع الأول، والايمان بواحدانيته المطلقة وقدرته التى لاتحد ومخالفته جميع الموجودات ، والتنزه عن الصدور والانسال ، والى التيقن بخلود النفس ، وبالعودة الى حياة أخرى تتحقق فيها عدالة الخالق بمجازاة الخير والشرير بما يستحقانه على عمليهما ، وهل الفلسفة الحقة شىء غير هذا ؟ وهل هناك فرق بين دعوة الفلسفة الى التأمل فى نشأة العالم ومصيره وفى عظمة الكون ونظام تسييره ٠

وهذه الآيات القرآنية التى تقول « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ؟ » « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »

« أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ٠ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » ٠

تأمل كيف يدعو القرآن الناس الى التفكر فى سير الكواكب مذعنة لنظام رسمته لها حكمة الله العالية ولو تعدتهلاصطدم بعضها ببعض ، ولهوت كلها فى لحظة واحدة الى مكان سحيق ٠ وهل مذهب « أنا كساغوراس » الذى يتخذ حكمة الاله الممثلة فى نظام الكون وتسيير الكواكب برهانا على وجوده وكماله شىء آخر غير ما فى هذه الآيات ؟ ثم انظر الى قول القرآن حين ينتقل بالناس من الأمر بالتفكر فى الكون الى التأمل فى النفس وما اشتملت عليه من خفايا وأسرار فيقول : « **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** » ؟ وهل يوجد أبلغ من هذه الآية فى تقرير مذهب ٠٠ « سقراط » المؤسس على حكمة »: « اعرف نفسك بنفسك » والذى يرى أن أعمق برهان فلسفى على وجود الاله هو ماينبع من داخل النفس

البشرية مؤسسا على خيرية الله الممثلة فى نفوسنا ، والتى تجذبنا دائما نحو الخير والسمو والجمال ، والذى هو فى رأى سقراط أدق وأثبت من برهان « أنا كساغوراس » المستند الى الحكمة الالهية الخارجية ، لأنه مؤسس على البصيرة التى لاتضل ولا تنخدع على عكس البرهان الأول المعتمد على المشاهدة الحسية التى قد يقع فيها الخطأ والضلال • بل تأمل كيف بلغت أذهانهم الى أن النبات لاينبت الا بواسطة الماء ليفهمهم أن للمسببات أسبابا وللمعلولات عللا ناشئة عنها ومترتبة عليها فيقول :

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون • ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون • وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون • وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون »

هذه هى الطريقة الثالثة من طرق النظر العقلى ، وهى تتبع الأسباب صعودا فى سلسلتها المحكمة من السبب المباشر الى السبب الاول الذى هو منشأ كل شىء : وليس ناشئا عن شىء ، وهذا هو مذهب « أرسطو » وتلك هى وسيلته فى كشف أسرار الكون وخفايا الوجود •

أنت ترى اذن « أن القرآن احتوى على هذه الطرق الثلاث وهى خير ما أنتجته العقليات البشرية من مذاهب النظر • والفرق بين القرآن وأولئك الفلاسفة هو أن كل واحد منهم زعم أن رأيه هو وحده الحق ، وأن ما عداه باطل أو منقود • أما القرآن فقد أقرها جميعا ، لأن الحكمة تقتضى أن توجد للنظر طرق مختلفة ما دامت عقليات الناظرين وثقافاتهم مختلفة ، وما داموا مكونين من العامة الذين لايدركون الا ما يعتمد على المشاهدة ويعتبرونها أقوى دليل